قالت العرب

إنهم يريدون أن يفتحوا العالم وهم عاجزون عن فتح كتاب
ويريدون أن يخوضوا البحر وهم يتزحلقون بقطرة ماء..

نزار قباني

الشهدر
العدد 342 - السنة الرابعة عشر ـ 6 أكتوبر 2025 - 14 ربيع الثانى 1447هـ

عبدالرحمن الشرقاوي: نوبل لم تكن فى متناول توفيق الحكيم

لم يدرك الحكيم قيمته كروائى إلا فى فترة متأخرة جدًا من حياته

كان الحكيم بارعًا فى مغازلة السلطة، يغيّر مواقفه مع كل حقبة سياسية جديدة

يظل اسم توفيق الحكيم حاضرًا فى الذاكرة الثقافية العربية بوصفه أحد أبرز أعمدة الأدب والفكر فى القرن العشرين، ليس فقط بما تركه من أعمال روائية ومسرحية أثرت وجدان القراء، وإنما أيضًا بقدرته على إثارة الجدل فى حياته وبعد رحيله. علاقته المتقلبة بالسلطة، مواقفه المتباينة من الحقبة الملكية إلى عبد الناصر ثم السادات فمبارك، وترجماته إلى لغات العالم، وصولًا إلى سؤال نوبل الذى لاحقه طويلًا، كلها محطات تضع الحكيم فى قلب النقاش حول الأدب والسياسة والتاريخ.

فى هذا الحوار، يفتح لنا الدكتور عبدالرحمن الشرقاوى أستاذ الأدب المقارن بجامعة أوسكا فى اليابان، وجامعة القاهرة، صفحات متعددة من سيرة الحكيم الأدبية والسياسية، محللًا علاقته بالسلطة، وأسباب عدم حصوله على نوبل، وموقعه بين كبار الأدباء مثل طه حسين ونجيب محفوظ، كما يتوقف عند أعماله التى صنعت شهرته وجعلت منه أيقونة ثقافية فى مصر والعالم.

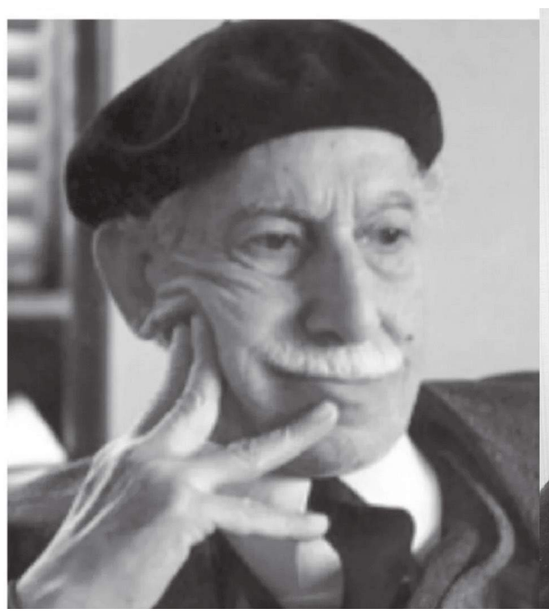

● العلاقة بين توفيق الحكيم والسلطات فى مصر مرت بتغيرات مختلفة من العصر الملكى وصولا إلى مبارك فكيف ترى هذا الأمر؟

– كان الحكيم بارعًا فى مغازلة السلطة، فقد أرسل برقيات لعبدالناصر، وكان يتابع خطاباته وهو على سرير المستشفى. وعندما توفى عبدالناصر عام ١٩٧٠ كتب مقالا بعنوان تمثال لعبدالناصر دعا فيه لإقامة تمثال له فى ميدان التحرير، وأعلن أنه سيتبرع بخمسين جنيهًا لهذا التمثال، علمًا بأنه حين تبرع لأبناء الشهداء لم يتجاوز تبرعه سبعة جنيهات ونشر ذلك فى الأهرام.

● ما الذى تغير فى موقف الحكيم خلال عهد الرئيس السادات؟

– لتتخلص من إرث ناصر فى فترة السادات نشر كتاب عودة الوعي، ولم يكن هذا الكتاب استثناء فى مغازلته للسلطة، فقد رأى فى السادات صورة "الرئيس المؤمن". وبعد اغتياله كتب الحكيم سلسلة مقالات بعنوان حوار مع الله، وكانت ضد التيار الإسلامى تمامًا، مما أدخله فى مواجهة مباشرة مع الشيخ محمد متولى الشعراوى وكثير من الإسلاميين. هذه المقالات أدت إلى عزله نوعًا ما فى فترة مبارك، ولم يلتفت كثيرون إلى أن الحكيم كان يغير وجهته السياسية مع كل حقبة جديدة.

● هل يتضح هذا التغير فى أعماله الأدبية القديمة أيضًا؟

– نعم، فلو عدنا إلى روايته يوميات نائب فى الأرياف الصادرة عام ١٩٣٧ نجد أنها تضمنت انتقادًا مباشرًا لمرحلة ما قبل دستور ١٩٣٦ وحكومة صدقى باشا، حيث صور مشهد تزوير الانتخابات، وهو دليل على تبدله مع كل مرحلة سياسية لاحقة، من الملكية إلى عبدالناصر ثم السادات وصولا إلى مبارك.

● وكيف كانت علاقته بالسلطة فى عهد الرئيس مبارك؟

– ظل على نفس النهج؛ حتى أنه خرج من المستشفى وهو مريض بعد أن حصل على إذن من الإدارة خصيصًا للقاء مبارك مع كتاب الأهرام، ثم عاد إلى المستشفى بعد اللقاء مباشرة. وفى مقابل ذلك حاولت سلطة مبارك أن تدعمه فى الحصول على جائزة نوبل

● ما موقف الحكيم من الحصول على نوبل من واقع وثائق نوبل المفرج عنها حتى الآن؟

– بالعودة إلى الوثائق التى أفرجت عنها لجنة نوبل حتى عام ١٩٧٢، يتضح أن طه حسين كان المرشح الأبرز حيث رُشح نحو ١٥ مرة من جهات مختلفة داخل مصر وخارجها، بينما كان توفيق الحكيم فى المرتبة الثانية، إذ لم يرشح سوى مرة واحدة فقط عام ١٩٦٩ على يد الدكتور شوقى ضيف.

● وهذا يعنى أن فرص حصوله على نوبل كانت صعبة؟

– عندما تنظر إلى قائمة المرشحين فى عام ١٩٦٩ تدرك صعوبة أن يحصل عليها، خاصة أن الحكيم بعد هذا التاريخ لم يقدم منجزًا أدبيًا كبيرًا يمكن أن يعزز فرصه فى الترشيح مرة أخرى.

● ما آلية عمل لجنة نوبل فى تقييم الأديب المرشح؟

– الترشيح يذهب أولًا إلى لجنة خماسية من الأكاديمية السويدية، لكن قبل ذلك يُعرض على خبير متخصص يكتب تقريرًا عن أعمال المرشح، يقيّم فيه القيمة الجمالية والتأثير الأدبى وعلاقته بمحيطه ومعاصريه. هذا التقرير يحفظ ويعاد النظر فيه إذا رُشح الأديب مرة أخرى، وفى حال لم يقدم جديدًا يكتفى بالتقرير القديم.

فجائزة نوبل لديها قائمة انتظار وكان من الممكن يكون توفيق الحكيم كذلك مثلما قيل عن طه حسين الذى فرزت أعماله مع البداية وحين يعاد ترشحيه كانت ترى اللجنة أنه لم يقدم جديداً يذكر ولم ينشر فى هذه السنة سوى عمل واحد ولم يحقق انتشارا كبيراً وكان هو دعاء الكروان

● هل تمثل اللغة العربية عائقًا فى الحصول على نوبل؟

– نعم، من أهم العقبات أن لجنة نوبل لا تنظر إلى الأعمال بالعربية مباشرة، بل تعتمد على الترجمات المتاحة بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والسويدية. وعندما صدرت رواية دعاء الكروان مثلًا، لم تكن قد تُرجمت إلى هذه اللغات التى تعتمد عليها اللجنة، وبالتالى لم تصل قيمتها الأدبية إلى أعضاء اللجنة كما ينبغي.

● ترجمت أعمال الحكيم بكثرة إلى اللغات الأجنبية، هل هذا دقيق؟

– فى الحقيقة، الإحصائيات تكشف غير ذلك. أعمال الحكيم تُرجمت إلى عدد محدود من اللغات، مثل الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية، لكن غالبًا لم يترجم العمل الواحد إلا إلى لغة أو لغتين فقط، ونادرًا ما أعيد نشره فى نفس اللغة المترجم إليها.

● ما أبرز الأمثلة على ذلك؟

– رواية شهرزاد تُرجمت إلى لغتين فقط، وعودة الروح إلى ثلاث لغات (الروسية والفرنسية والإنجليزية عام ١٩٨٤) عندما قرر الأمريكان الحصول على حقوق الملكية لنشر توفيق الحكيم على أمل أنه لو حصل على جائزة نوبل تكون لهم حقوق نشره.

أما مسرحية أهل الكهف فقد ترجمت ثلاث مرات فقط، ومعظم مسرحياته لم تترجم إلا مرة أو مرتين، وكان الاهتمام بترجمة كتبه الإسلامية أكبر نسبيًا، مثل كتاب محمد صلى الله عليه وسلم الذى ترجم عام ١٩٦٤ بجهود المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ولم يكن هناك اهتمام كبير بترجمة أعماله المسرحية فهى لم تترجم إلى مرة أو اثنين .

● هل هناك عمل حظى بترجمات أوسع من غيره؟

– أكثر عمل أدبى ترجم له فهو يوميات نائب فى الأرياف ففى حياة الحكيم وبإذنه ترجمت إلى ٨ لغات، وترجم إلى اليابانية مرة تاسعة دون أن يعرف الحكيم شيئًا ترجمت إلى الفرنسية ١٩٣٩ طبعة أولى، ١٩٤٢ ط ثانية، ١٩٧٤ ط٣، ١٩٧٨ ط٤، خمس طبعات

ويذكر الحكيم أنها ترجمت بدار بلون بباريس وهذا غير صحيح فهو ترجم بالأساس سنة ١٩٣٩م ترجمة مشتركة لمصرى وفرنسى وقدم له حافظ عفيفى رئيس الديوان الملكى وقتها ووزير الخارجية المصرية، وسفير مصر فى إنجلترا والذى سجن بعد يوليو. والترجمة خرجت من المعهد الفرنسى للآثار الموجود فى مصر.

وترجمت ونشرت بالعبرية عام ١٩٤٥م، ويذكر أنها ترجمة إلى الإنجليزية بدار هارفرد بلندن عام ١٩٤٧م ولم يذكر اسم مترجمها آبا إبان إلا فى الطبعة الأخيرة من هذه الرواية.

وترجمت إلى الإسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ ترجمة جرسيا جوميز المستشرق الإسبانى الكبير، ونشرت بالسويدية ١٩٥٥م، والألمانية ١٩٦١، وبالرومانية ١٩٦٢م، وبالروسية ١٩٦١م. اليابانية فى السبعينيات وترجمت معها عصفور من الشرق وقد كانت طبعة غير تجارية ولأغراض بحثية. وهناك طبعة إيطالية فى القرن ٢١ وفيه طبعة برتغالي.

● هل تكررت هذه الوفرة مع بقية أعمال الحكيم؟

– لا، معظم أعماله الأخرى نادرًا ما تكررت ترجماتها. مثلًا أهل الكهف ترجمت ثلاث مرات فقط، على عكس يوميات نائب فى الأرياف التى ترجمت وأعيد طباعتها أكثر من مرة، مما يجعلها عمله الأكثر حضورًا عالميًا.

● توفيق الحكيم رُشح لجائزة نوبل عام ١٩٦٩، لماذا لم يحصل عليها رغم أن معظم أعماله كانت مترجمة؟

– ببساطة، نوبل لا تُمنح غالبًا من أول ترشيح. يلزم أن يكون هناك إنتاج مستمر ومتجدد، وهذا لم يكن متحققًا عند الحكيم فى تلك الفترة. على العكس، نجيب محفوظ كان ما يزال ينشر أعماله بانتظام، بل عندما حصل على الجائزة كانت روايته قشتمر تُنشر مسلسلة فى الصحف.

● هل ظهر اسم نجيب محفوظ فى ترشيحات نوبل قبل ١٩٧٢؟

– لا، حتى عام ١٩٧٢ لم يكن اسم نجيب محفوظ قد ظهر بعد فى قوائم الترشيح. بينما كان توفيق الحكيم مدعومًا بسلطة سياسية وبمؤسسة صحفية قوية من أصدقائه وزملائه فى فرنسا، ثم بالمناصب القيادية التى تولاها فى مصر بعد ذلك. فى المقابل، محفوظ كان موظفًا عاديًا ولم يكن لديه "جيش من المدافعين عنه".

● هل لو كان توفيق الحكيم حيًا وقت منح نوبل لنجيب محفوظ كان من الممكن أن يحصل عليها؟

– رأيى الصريح أنه حتى لو كان حيًا لم يكن سيحصل عليها. ولسنا بحاجة إلى الانتظار حتى ٢٠٣٨ حين تُكشف آخر الوثائق، بل يكفى خمس أو ست سنوات قادمة لتأكيد هذا الرأي.

● لماذا ترى أن فرص الحكيم فى نوبل كانت محدودة؟

– لأن الأجانب كانوا يفضلون أعماله الروائية على المسرحية، بينما كان هو يصنف نفسه كاتبًا مسرحيًا. مسرحياته اعتمدت كثيرًا على التراث العالمى والأساطير الإغريقية، وهو بالنسبة لهم لم يبتكر جديدًا. الحكيم عاش فى عالم ذهنى غير واقعي، بينما نجيب محفوظ انغمس فى واقعه.

● كيف انعكس ذلك فى تجربة كل منهما؟

– كما يقول عبدالمحسن طه بدر فى كتابه الروائى والأرض، انشغل الحكيم بالبحث عن مذهبه الفنى بعيدًا عن الواقع، فأصبح التقاطه لواقعه فقيرًا جدًا. لو استمر وكيلًا للنيابة لوجد مادة أدبية غنية من الواقع، لكنه اختار العيش فى عالم الأفكار والكتب. بينما نجيب محفوظ استلهم عالم الموظفين، والفتوات، والتجار، وأحياء القاهرة الشعبية. كان قارئًا نهمًا لكنه لم يستعرض ثقافته فى نصوصه، بل قدّم أدبًا يعكس واقعه. أما الحكيم فجزء كبير من أدبه كان استعراضًا لثقافته، وهذا لم يساعده فى نيل نوبل.

● هل كان المسرح بالنسبة للحكيم مشروع ريادة أكثر من كونه مشروع إبداع؟

–نعم. فى البداية جرّب الشعر ثم الرواية، لكنه وجد أن جيله مملوء بالمنافسين مثل العقاد وطه حسين والمازني. المسرح كان بالنسبة له "الملعب الفارغ" الذى سيحقق له الريادة. بالفعل كانت له علاقة بالمسرح منذ المرحلة الثانوية، ثم طوّره فى أوروبا على المقاس الغربي. لكنه بانخلاعه من جذوره الثقافية لم يصنع مسرحًا من ثقافته الخاصة، بل استورد موضوعات أوروبية وأعاد تقديمها.

● فى رأيك، هل كان توفيق الحكيم مدركًا لقيمته كروائي؟

– أعتقد أنه لم يدرك ذلك إلا متأخرًا جدًا. كان عليه أن يغضب من نفسه لأنه أساء التقدير. لو عاد مبكرًا للرواية لكان صنع عالمًا قصصيًا فريدًا، فقد امتلك عدسة وبؤرة لالتقاط ساخر للأحداث، يحولها إلى كوميديا أو مأساة خرافية بذكاء وموهبة حقيقية.

● ما الذى يميز الحكيم عن غيره من الكتاب مثل نجيب محفوظ؟

– الحكيم تخلص من عقدة الرقابة الذاتية التى كانت عند محفوظ وغيره. لم يتردد فى نشر فضائح تخصه، قصصًا وخطابات لعلاقاته النسائية، بل وحتى تفاصيل صادمة مثل ما ذكره فى مصر بين عهدين عن مشاهدته أفلامًا إباحية فى فرنسا بالخطأ مع زوجته. كان جريئًا فى هذه الناحية.

● هل هذا التفرد السبب فى أن أعماله الروائية التى حققت النجاح الأكبر سواء محليًا او عالميًا؟

– نعم أعماله الروائية هى التى جذبت الترجمة، لا المسرحيات. عودة الروح أعيد نشرها مرات، وعصفور من الشرق تحولت إلى فيلم. أما يوميات نائب فى الأرياف فهى الأبرز: صدرت أول مرة عام ١٩٣٧، ثم توالت طبعاتها فى ١٩٣٩ و١٩٤٢ وغيرها، وآخر طبعة عام ٢٠١٥. تحولت لفيلم بقرار من عبدالناصر، ثم لمسلسل عام ١٩٨١، وعولجت مسرحيًا أكثر من مرة. نالت اهتمامًا جماهيريًا وأكاديميًا ووزعت على طلاب المدارس.

● كيف وصلت نجومية الحكيم إلى الجمهور فى الثمانينيات؟

– كانت له هالة ضخمة. يكفى أن الأهرام نشرت خبرًا بأن هاتف توفيق الحكيم معطل، وفى اليوم التالى أصدرت مصلحة التليفونات بيانًا تؤكد فيه أن العطل ليس عندها، بل لأن سماعة الهاتف لم تكن موضوعة! هذا يعكس مكانته الرمزية فى مصر آنذاك.

● هل استمرت أعماله تُترجم بعد رحيله؟

– نعم، مثل يوميات نائب فى الأرياف التى ترجمت إلى الإيطالية عام ٢٠٠٧، بعد ٧٠ عامًا من صدورها، لتفتح لنفسها جمهورًا جديدًا. وصلت ترجماته إلى الكتلة الشرقية والغربية على حد سواء.

● لماذا كان هناك اعتقاد فى مصر أن الحكيم الأحق بنوبل؟

– لأن الهالة الإعلامية حوله كانت كبيرة. لكن فى الخارج لم تكن الصورة كذلك. طه حسين مثلًا تُرجم قبله وبشكل أفضل، وكتب بالفرنسية نفسها. نجيب محفوظ أيضًا تُرجمت أعماله تجاريًا عبر دور نشر خاصة فى أوروبا. أما ترجمات الحكيم فكثير منها خرج من مؤسسات بحثية أو حكومية، وليست دور نشر تجارية، وهذا فارق مهم.

● هل هناك دوافع خفية لترجمة نائب فى الأرياف إلى الإنجليزية والفرنسية أكثر مرة؟

– فى الترجمات عادة ما يتم "استئناس النص" أى تقريب روحه إلى القارئ الجديد. لكن فى حالة الحكيم، كثير من الترجمات لم تقدمه كأديب بل كوثيقة إدانة للمجتمع المصري. مثلًا، آبا إيبان فى ترجمته الإنجليزية أراد أن يظهر تخلف المجتمع وفساده، والنسخة الفرنسية قدمت النص ليُقال إن الإنجليز سبب القذارة. فى الحالتين لم يكن الهدف تقديم نص أدبى للقارئ الغربي، بل تقديم صورة سلبية عن مصر.

يوميات نائب فى الأرياف هى أكثر أعمال الحكيم ترجمة وانتشارًا عالميًا

الهالة الإعلامية الضخمة فى مصر صنعت صورة أن الحكيم الأحق بجائزة نوبل

ترجمات الحكيم غالبًا قدمت نصوصه كوثائق إدانة للمجتمع لا كنصوص أدبية خالصة

حاوره: د. عبدالكريم الحجراوي

لماذا تعانى اللغة العربية فى الوقت الراهن؟

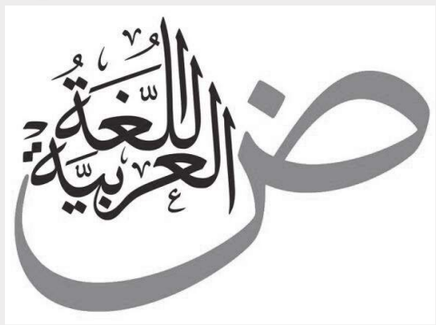

ربما من ولد فى قرية فى جنوب مصر مثلى وعاش فيها سنوات عمره الأولى ولم ينقطع عن زيارتها بشكل دورى كل عام، عليه ألا يشعر بأن اللغة العربية تعانى، وهو يرى حرص أهالى قريته وما يجاورها من قرى على إرسال أبنائهم إلى الكتاتيب فيحفظونه كاملا وهم دون العاشرة. وكذلك حرص هؤلاء الأهالى بالتبرع بالأراضى والأموال بجمعهم من بعضهم البعض من أجل بناء المعاهد الأزهرية لينخرط أبناءهم فى التعليم الأزهري.

يدلل هذا الجانب فى عمق المجتمع المصرى على الأقل فى محافظات الجنوب بشكل واضح على أن اللغة العربية لا تعاني. فهل يمكن أخذ هذا المظهر للقول بأن اللغة العربية ما زالت بعافيتها وعنفوانها. أما القول بأن العربية الدينية ـــ إن صح التعبير ـــ أو المرتبطة بجانب الدين هى التى مازالت فتية وقوية وتشهد إقبالًا كبيرًا لا يستطيع أن ينكره عاقل. لنأتى السؤال الأهم هنا. ماذا عن بقية جوانب اللغة العربية الأدبية والاجتماعية والعلمية. التى تتفاوت فيها اللغة العربية قوة وضعفًا بشكل كبير.

فإذا نظرنا إلى الجانب الأدبى فعلى مدار أكثر من ١٦ قرنًا من تاريخ اللغة العربية حظى الشعر بالمكانة الأكبر فيها والاحتفاء والتقدير وعليه كانت تعطى الأعطيات والخلع والهدايا والمكانة الاجتماعية الأدبية الكبيرة وكان تلك المكانة لها أسبابها المنطقية من حقبة لحقبة، وتفاوتت جماليات هذا الشعر عبر هذه الحقب. أما السرد فقد أخذ مسارين ناحية رسمية وأخرى شعبية، فى الناحية الرسمية اقتصر السرد على فنون أدبية بعينها مثل الرسائل والمقامات والتأريخ باللغة تحتفى بالسجع والجناس فى محاولة لأن يكون النثر صنو الشعر المقفى فى الموسيقى خاصة مع أمة تحتفى بالشفاهة والسماع أكثر من القراءة والتدوين ـــ والشواهد على ذلك كثيرة ـــ، فكان الاهتمام بالألفاظ نفسها ووقعها على أذن السامع كبيرًا ربما أكبر من الاهتمام بالمضمون فى حد ذاته مما عطل من سلاسة السرد.

أماعن السرد الشعبى فكان أفضل حالا وأكثر تحررًا وخيالا من الإبداع السردى الرسمى خاصة مع السير الشعبية عنترة، حمزة البهلوان، الزير سالم، الظاهر بيبرس...إلخ وحكايات ألف ليلة وليلة، فقد قطعت هذه الفنون المهمشة وغير المعترف بها رسيمًا شوطًا كبيرًا نحو السلاسة السردية مع الأخذ فى الاعتبار أن هذه السير والحكايات كانت تروى بشكل شفاهى فى قصور الخلفاء وفى الأسواق والمقاهى أى أن العنصر المتعلق بالموسيقى اللفظية ظل ملازمًا لها؛ لكن من ناحية أخرى كان المضمون الحكائي، بل إن هناك نموذجًا فريدًا استطاع الجمع ما بين سلاسة السرد والتخلى عن الصنعة اللفظية وكتبت بأسلوب أقرب إلى السرد الروائى المعاصر يتمثل فى سيرة حمزة البهلوان.

ومع حالة التردى التى مر بها العالم العربى والإسلامى ضعفت اللغة العربية بصورة كبيرة فى كل جوانبها الأدبية، وأصبحت الزخرفة اللفظية الغالبة عليها فى شعرها ونثرها، ويظهر ذلك بوضوح فى النماذج الموجودة لهذه الحقب خاصة بعد سيطرة المماليك الذى كان اهتمامهم الأكبر بأمور الجند لا الأدب فهم فى الأصل عبيد تم جلبهم من بيئة غير عربية وهم صغار وجرت تربيتهم تربية عسكرية فى المقام الأول ولم تكن العربية وفنونها الأدبية من دائرة اهتمامهم فى زمن كان اعتماد الأدباء والشعراء فى المعاش على ما يمنح إليهم من ولاة الأمور. ومع دخول العثمانيين إلى مصر اشتدت أزمة اللغة العربية فى جانب الأدبى فالعثمانيون الذين لم يهمشوا اللغة العربية وحدها بل همشوا العالم العربى كله فى جميع مناحى الحياة. خاصة وأن اللغة العربية لم تكن لسان الأتراك، واقتصار دورهم فى الدول التى وقعت تحت سيطرتهم على حمايتها عسكريًا وجمع الضرائب من هذه البلاد دون أى دور اجتماعى يسهم فى خلق حركة علمية أو أدبية تواكب المتغيرات التى لحقت بالعالم فى ذلك الفترة بل عزلتهم عنها تمامًا ولم يبق إلا بصيص من نور يقدمه الأزهر الشريف؛ لكنه لم يكن يشفع لإعادة إحياء اللغة لا شعرًا ولا نثرًا. حتى حدثت الصدمة التى تلقها المصريون والعرب على يد الحملة الفرنسية وعلى إثرها أدركوا حقيقة واقعهم المرير فى شتى المجالات يظهر ذلك الضعف فى الكتب التى وصلت إلينا من هذه الفترة.

وفى عصر محمد على عمل كثير من الرواد الذى ابتعثهم إلى الخارج على نقل ما تعلموه إلى المصريين وبدأت هذه النهضة اللغوية شعرًا فن العرب الأول مع مدرسة «الإحياء والبعث» الذى يكشف اسمها بوضوح عما جرى للغة العربية الأدبية. وفى هذه الفترة أيضًا نشأ الصراع الذى ما زال حيًا حتى الآن بين العامية والفصحى خاصة مع الفنون الأدبية المستحدثة ولم تكن موجودة من قبل التى تعتمد على الحوار وعلى رأسها المسرح بصورته الغربية الذى بدأ مع يعقوب صنوع بالعامية المصرية حتى إن رفاعة رافع الطهطاوى ترجم مسرحية هيلانة الجميلة قبله بلغة تخلط بين العامية والفصحى، وله رأى فى هذه المسألة ودعا إلى التصنيف والكتابة بالعامية فى بعض المسائل التى تتعلق بالعامة. فيما قام تلميذه محمد عثمان جلال بترجمة مسرحيات راسين وموليير بالزجل العامى المصري. ومع دخول الإنجليز مصر ودعوة المستشرقين لتنحية الفصحى والعمل على تطوير العامية اشتدت حدة الصراع بين الفصحى والعامية وأخذت بعدًا دينيًا وقوميًا فى الآن ذاته، بوصف أن هؤلاء المستشرقين يهدفون من خلال دعوتهم تلك إلى تصفية الإسلام نفسه بإبعاد الناس عن اللغة التى نزل بها القرآن الكريم ما كان له أثر عكسى فى نفوس المصريين وربطوا ما بين العامية والبعد عن الدين.

ومع ظهور القومية المصرية ودعوات أحمد لطفى السيد إلى ما يطلق عليه التمصير أخذت العامية المصرية فى بداية القرن العشرين فى الصعود لكن الفصحى كانت أيضًا خطت خطوات جادة وقوية خاصة فى الجانب الشعرى والمدارس الشعرية المختلفة التى ظهرت فى هذه الفترة وما تلتها. أما السرد فكان آخذ فى طريقه للتشكل يعمل على التخلص من الرطانة اللفظية والمحسنات البديعية، سواء فى لغة الصحافة التى كان له دور بارز فى تطوير السرد العربى أو مع فن الرواية والقصة القصيرة.

وواصلت الحركة السردية العربية نضجها عبر عقود أسفرت عن فوز أحد أدباء العربية على جائزة نوبل للآداب فكان من حيثيات منح الجائزة له «أسهم فى تطور اللغة الأدبية فى الأوساط الثقافية على امتداد العالم الناطق بالعربية». وكان أول فائز بهذه الجائزة لغته الأم هى العربية. وحظيت الثقافة العربية بعدد من الكتاب والروائيين الكبار الذى يمتلكون أدواتهم الإبداعية بشكل مدهش ومتفرد، حول الأمة العربية لأول مرة فى تاريخها الرسمى من الشعر إلى السرد حتى سادت العبارة التى أطلقها الدكتور جابر عصفور وعبرت عن هذه المرحلة التى نعيشها بأننا نعيش فى زمن الرواية. مع الأخذ فى الاعتبار كما ذكرنا آنفًا أن الثقافة الشعبية قد احتفت بالسرد منذ القدم عبر سيرها وحكاياتها الشعبية. لكنها كان ينظر إليها من النخبة على أنها متدنية القيمة، وربما يعاقب من يقرأها من قبل آبائهم كما كشف عن ذلك طه حسين سواء فى سيرته أو فى روايته دعاء الكروان وغيرها من الأعمال. إذا فى إن اللغة العربية تتمتع بالقوة سواء فى جانبها الدينى أو الأدبى وتعافت فى القرن الأخير من عوامل الضعف الأسلوبية التى لحقت بها على مدار قرون لكن لماذا اللغة العربية تعانى رغم أنه يصل عدد المتحدثين بها إلى نحو نصف مليار، وهى لغة الطقوس الدينية لنحو مليار ونصف مسلم حول العالم.

وفى ظننا أنها تعانى لأنها تحولت إلى لغة محلية، وليست لغة عالمية. لغة ضعيفة من الناحية العلمية ليس لديها ما تقدمه سوى فى الجانبين الدينى والأدبي، محصورة على الناطقين بها أو من يدينون بالإسلام. فى عصر توغلت فيه التكنولوجيا الرقمية تتعمق أزمة اللغة العربية ففى القرن الماضى كانت المجامع العربية قادرة على تعريب المنتجات الغربية المستحدثة ولم تكن موجودة من قبل مثل الثلاجة والغسالة أو حتى القطار الذى أخذوه من قطار الجمال القديم؛ لكن الآن بات من الصعب على اللغة العربية ملاحقة كل هذه التطورات الحادثة التى جعلت هناك لغة عالمية موحدة يتعامل بها العالم كله أى كانت لغته والمتمثلة فى اللغة الإنجليزية. وفى هذا تتشارك اللغة العربية مع لغات العالم بيد أنها تختلف بأن اللغات الأخرى مثل الفرنسية والألمانية لديها ما تقدمه بلغتها، ولا يتعلم أبناؤهم العلوم الطبيبة المختلفة والهندسية بلغة أجنبية لأنهم مشاركين فى صنع هذه العلوم ولهم إسهاماتهم فيها وهو ما تفتقده اللغة العربية تمامًا مما يجعل منها فى هذا المضمار لغة تابعة غير قادرة على التخلص من هذه التبعية.

ويقودنا الحديث عن التبعية إلى مسألة جانب أخر من الجوانب التى تعانى منها اللغة العربية ويتمثل فى الجانب الفكرى غير قادرة حتى الآن التعبير عن هويتها التى تسمح لها بمواكبة التطورات الحديثة. وتتجلى هذه التبعية لدى كثير من المترجمين غير المتغرسين فى الثقافة العربية بإرثها الثقافى الطويل، وعلى الجانب الآخر مولعين بالثقافة التى ينقلون عنها يتماهون معها فى كثير من الأحيان، وهو الحادث أيضًا مع عدد المثقفين والكتاب يتحدثون بلسان عربى لكن بتفكير غربى لا يتناسب مع طبيعة المجتمعات العربية، مما يجعل الثقافة العربية الحديثة فكريًا غارقة بين اتجاهين متعارضين الأول منفصل عن الثقافة العربية يريد هدمها والسير على غرار النموذج الغربى المتقدم واتجاه معارض يوغل فى التراث والتاريخ العربى ويعمل على إعادته بزمنه القديم لا وفق لمقتضيات الواقع المعاصر. أحدهم يرفع شعار تجديد الخطاب الثقافى والدينى بغرض هدمه وآخر يشكك فى نوايا هؤلاء الذين يراهم يستهدفون الدين. حلقة مفرغة يدور فيها العقل العربى منذ القرن التاسع عشر وحتى الآن لم يستطع تجاوزها.

د. عبدالكريم الحجراوي